# ما وراء الشجر

خلف شجرة عملاقة، وقفا متواريين، والحقيبة ما زالت على ظهره.

كانت شجرة استوائية وارفة، لم يعرفا اسمها وحين سألا، أجابهما رجل محلي بكلمات لم يستطيعا تذكرها أكثر من التفاتهما ناحيتها.

الشمس واضحة هنا، تبدو أقرب وأكثر سطوعا من أي مكان آخر قاما بزيارتـه في بلدهما. ومع ذلك يمكنهما النظر إليها دون عناء. ثبتت نظرها عليها وأمعنت النظر، للحظة ظنت أنها انطبعت داخل مقلتيها ولم يعد في وسعها رؤية شئ إلا من خلالها.

هز كتفها ببطء وهو يحثها عـلى التحرك. المكان مفتوح، يطل على كل شيء. شمس وشجر وهواء وبحر. لم تتدخل يد بشرية حتى ببناء حجري هنا أو هناك.

بالأمس لم يكترثا لبعض السـحب التـي تربصت بهما. تصورا أنهما قد يعودان كما ذهبا، بملابس جافة وشعر مثبت وأحذية نظيفة. أكثر ما حرصا

عليه هو عبوة رذاذ يصد البعوض ويبقيه بعيدًا. أغلب من بالقارب كانوا مسلحين بحقيبة كبيرة محشوة بمناشف في قعرها ومناشف في الطبقة الوسطى منها والمزيد من المناشف بالأعلى لحماية ما بأسفلها.

شعرا بقلق حين انتبها إلى أنهما لم يكترثا لهذه الاحتياطات. لكنهما في الصباح كانا قد تضاجعا مرة، وبعد الاستحمام تضاجعا مرة أخرى بحميمية أكثر، وتأخرا على ميعاد رحلتهما. فسحبا الأحذية والقبعات وانطلقا مرحين.

وفي الطريـق، كانت تأوهاتها لا تزال تتردد في أذنيه، وتثيره. اختار أن يجلسـا في مؤخرة عربة صغيرة لا تحمل إلا سـبعة ركاب، حتى يسـتطيع تقبيلهـا وقتما يريد. احتضنها بهدوء، كأنما انزلقت يده دون قصد منه على ظهرها. ثم تسلل لثديها من تحت إبطها، نغزها نغزة فابتسمت دون حراك، اقترب ليقبلها كما خطط تماما، حين رأت نظرة السائق لهما في المرآة، صدته وأزاحت يده بسرعة. ضحك السائق وقال بإنجليزية هزيلة:

- honeymooners.. Ha?

ضحكا وأومأ هو برأسـه سعيداً. غمز السائق بعينه بينما يتابع الطريق المترب الحلزوني بخبرة محنكة:

- No honeymoon in bus.. No honeymoon in street

التفت إليهما كل من بالعربة، دفست هي رأسها في الزجاج بخجل بينما

أراح هو ظهره للوراء في استرخاء، فاردا ذراعيه وغمز له بعينه. أصبحت كلماته قافية يلوكونها طوال اليوم كلما أرادا خطف لمسة أو احتكاك، تقلده هي تماما بإنجليزيته العرجاء وتغمز.

قبل الوصول إلى القارب، على رصيف الميناء الصغير، كان المحليون هادئين، بينما ينظر أصحاب الجنسيات الأخرى حولهم ويتبادلون النظر للسماء. لا تسعفهم لغاتهم المختلفة في التواصل. تضخمت السحب فوقهم واغمق لونها. أصبح الأفق دخانيًا لا يرون من خلاله حدود البحر من السماء.

على جانب المرفأ، وقف بعض الشباب المحلي ببنطلونات قصيرة كالحة وقبعات صغيرة من القش يسخرون من قلقهم. ضحكوا قليلا ويبدو أنهم أطلقوا النكات. لم يصمتوا إلا حين تحدث أحد البحارة إليهم.

أسندت ظهرها على حجر ضخم، ونفخت دخان سيجارتها صانعة سحبًا خاصة بها. غابت قليلا، كان المشهد مكررا مَعيشا من قبل، هو وهي والأمواج تتكسر على أذنيها ودخان أرمَدَ الصورة في عقلها، فبهتت واختفت.

– كما لو كنا هنا من قبل!

ركبا القارب مع المجموعة، تواريا عن الأعين في المقدمة، بعيدًا عن

المحـرك والبحارة. لكنها لم تسـمح له بالاقتراب، وكررت جملة السـائق وضحكا.

لم تمطر يومها، تبدد كل القلق على وجوه السـائحين في رحلة العودة. وفـازا هما باللا مبـالاة التي حرصا عليها طوال الوقـت. كانا محط أنظار الجميـع منذ بداية اليـوم، تجاهُلهما للنظرات وتحـاشي الكلام جعل منهما نجمين مفضلين للبعض.

في الصباح، كانا يسـتعدان للرحلة الجديدة، جزيـرة أيضًا. قالت إنها ستحشو حقيبتها بالمناشف كذلك، ويكفي أنها تجاهلت القلق بالأمس. لم يعلق، كان يرغب في الالتحام بها قبل النزول، لكنها قضت الوقت بأكمله في الإعداد للرحلة.

نزلا لردهة الفندق، كان الجميع بلا حقائب، أخف وزنا وقلقا. تبادلا حمل الحقيبة والعرق يسيل على ظهريهما من قيظ النهار. لم يمنعهما حملها من تبادل النكات ولوك جملة السائق الخالدة.

الشمس دانية، يمكنها قطف أشعتها الذهبية بأطراف أصابعها. تكاد تلامس أنفها الطويل الأرستقراطي، سحبت قبعتها للأمام قليلا، ما اضطرها إلى رفع رأسها لترى الطريق.

في القارب، لم يستطيعا التسـلل للمقدمة لحجم الحقيبة الكبير. حمولة

زائدة، حرمته من الحب صباحا والآن تحدد تحركاتهما وتلامسهما. نظر إليها وأرفل جسده الفارع بمفرده للمقدمة.

رسا القارب على الشاطئ وهما صامتان والحقيبة بينهما. أرادا تغيير ملابسهما ليرتديا ملابس البحر، قيل لهما إن لا مكان مغلق لتبديل الملابس هنا. مشطا المكان بأعينهما بحثا عن شجرة ضخمة ليتواريا وراءها.

كانت المجموعة بلباس البحر بالفعل ما عداهما. توجها للشجرة يجران الحقيبة التي أصبحت مزعجة جدًا عند هذه اللحظة. هناك خلف الشجرة العملاقة، وقفا متواريين، والحقيبة على ظهره. شجرة استوائية وارفة، لم يعرفا اسمها. خلع كل منهما ملابسه ليرتدي لباس البحر، لكنهما لم يقاوما، وفي ظل الشجرة تضاجعا.

كانت الحقيبة على بعد أمتار من الشجرة، حين نظرت إليها لتقدر المسافة التي عليها أن تسيرها عارية لتجلب ملابسها، رأت قماشها مرقّطًا. فزعت في البداية ظنا أن حيوانا صغيرا نائم فوقها، لكن حين أمعنت النظر وجدت إنها الحقيبة الداهية وأن البقع تزداد بوتيرة أسرع. حتى أصبحت كلها بقعة واحدة، مبللة بالكامل.

بدأت الأصوات تتضح أكثر، كُشف عنهما الغطاء الذي تمددوا أسفله حتى الثمالة. فسمعا صوت الماء يطرق الأرض بقوة بالقرب منهما، لكنها

لم تصــل إليهما بعد. كان ممددًا فوقهــا، لا يزال يلعق طرف أذنها لكنه رفع رأسه قليلا حين رأى الحقيبة. ثم نهض متباطئا في محاولة للاستيعاب. بيده ورقــة وارفة يغطي بها عضوًا منتصبًا، وهي وراءه مخبأة عضوها ونهديها، رمقا المجموعة تجري في كل مكان في محاولة للاختباء.

كان سيلا منهمرا أغرق الجميع. حتى إنها اضطربت، لم تعد تعرف من أين يأتي الماء تحديدا، أمن الأرض أم من الســماء أم إنه رذاذ الأمواج التي علت كهضاب صغيرة؟ الألوان باهتة طارت مع الرياح، والأشجار مالت عكس اتجاه البحر. لم تمطر تحت الشجرة، لم يصبهما أي بلل، لكن المناشف داخل الحقيبة غرقت تماما. جرفها السيل في اتجاه لم يستطيعا تحديده، مخلفة وراءها شعورا طاغيا بالسلام الداخلي لفقدانها.

عاريان، سألا مرة أخرى أحد المحليين عن اسم الشجرة، تفوه بإنجليزية متكسرة:

– شجرة الحب.